الفصل الأول

السياسة السوفييتية تجاه فلسطين
١٩٤٩ - ١٩٦٧

خلال السنوات السبع التى تلت إبرام اتفاقيات الهدنة من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٦ استمرت القضية الفلسطينية تتحرك فى مجالين ، المجال الأول : هو المجال السياسى حيث حاولت الأمم المتحدة عبثاً أن تحمل كلا من العرب والإسرائيليين على قبول التسوية السلمية للخلافات الناشئة بينهما ، وبعد ذلك حاولت الأمم المتحدة أن تجد المسكنات لهذه الخلافات . والمجال الثانى : هو الأرض نفسها على طول خطوط الهدنة حيث تكررت الحوادث التى أخذت تزداد عنفاً يوما بعد يوم ، إلى أن انتهت إلى الحرب صراحة .

وكان الاعتراف بإسرائيل – الدولة المستقلة – من جانب دول كثيرة العدد غربية وشرقية أيضاً ، ويأتى على قمتها الاتحاد السوفييتى الذى كان أقوى سند للدولة اليهودية الجديدة ، ربما أكثر من الولايات المتحدة نفسها فى هذه الفترة ،

حيث كان الاتحاد السوفييتى أول دولة كبرى تعترف بإسرائيل اعترافاً صريحاً ومباشراً وكاملاً ، فى حين جاء الاعتراف الأمريكى بإسرائيل مجرد اعتراف بالأمر الواقع .

وعلى الصعيد الإسرائيلى تتميز الفترة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٤ بتطوير المؤسسات الإسرائيلية ، وبناء قوة عسكرية قادرة على مواجهة العرب ، وقد لاحظ بن جوريون أن « العداء المستمر من جانب العرب عشية إنشاء الدولة ، وفى الفترة اللاحقة ، أدى إلى جعل المجتمع اليهودى أكثر تماسكاً ، وصارت العداوة العربية المتأصلة حافزاً لتطور إسرائيل » والمجتمع الإسرائيلى شهد فى هذه الفترة حالات مفرطة من التشكيك حيال الحكومات العربية ، والزعماء العرب جرى اعتبارهم فاسدين وغير ديموقراطيين والزعماء الإسرائيليون بالتالى فقدوا آمالهم فى التفاوض بشأن صلح مع الملك عبد الله ، والحكومات العربية عكفت على علاج مشاكل بلادها وانكفأت الدول العربية على ذاتها داخلياً .

والمؤرخون العرب بحثوا بعمق عن معنى الكارثة – طبقاً لعنوان كتاب المؤرخ اللبنانى قسطنطين رزيق – من خلال عيوب المجتمع العربى وأسلوبه فى التفكير ، والأحزاب العربية القديمة الحاكمة لم تكن تعرف مزاولة سياسة أخرى غير تلك التى كانت تزاولها دائماً وتكشف القناع تماماً عن العيوب الداخلية لهذه الأحزاب ، ففى مصر اضطر الملك فاروق فى يوليو ١٩٤٩ إلى أن يشرك حزب الوفد فى وزارة ائتلافية ، بالرغم مما فقده الوفد من مكانته ، لأن بريطانيا هى التى فرضته على الملك قبل ذلك بفترة . وعقب قيام الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لم تكن الثورة تشكل آنئذ خطراً بالنسبة لإسرائيل إلا على المدى البعيد .

فالضباط الأحرار كانوا يرغبون فى أن يجعلوا مصر دولة حرة قوية ، وانشغلت الثورة المصرية حتى مارس ١٩٥٤ فى الكفاح داخليًا ضد قوى المجتمع القديم ، ومن بينها الشيوعيون والإخوان المسلمون ، أما مشكلة فلسطين فلم تكن الأولى فى القائمة التى وضعها الضباط الشبان ، وإن كانت قد لعبت - بدون شك - دوراً هاماً فى اظهار عمق الفساد والانحلال الذى كان يسود مجتمع ماقبل الثورة . وتشير إحدى الدراسات إلى أن مصر قد قامت فى هذه الفترة - عام ١٩٥٠ - بقيادة مفاوضات مع إسرائيل ، حيث أشارت محطات الإذاعات العربية . كما نشرت الصحف الكبرى تصريحاً نسب إلى مصطفى نصرت وزير الحربية المصرى يقول فيه : « قد يجتمع الوفدان المصرى والإسرائيلى فى يوم ٢٦ من فبراير باشتراك ممثلى الأمم المتحدة للمناقشة فى موضوع الصلح » .. غير أن المصريين والإسرائيليين على السواء قد أسرعوا بكذبون هذا النبأ .

وفى سوريا انعكس انكفاؤها على مشكلاتها الداخلية فى حدوث اضطرابات عنيفة ، فالهزيمة جعلت الإسرائيليين يقتربون من حدودهم أكثر وأكثر ، وانفجر الغضب العلنى الشعبى ، وتوالت مجموعة من الانقلابات العسكرية قام بها « حسنى الزعيم » ثم « سامى الحناوى » ثم أديب الشيشكلى ١٩٤٩ - ١٩٥٤ الذى أعلن عن عزمه على تكريس كل جهوده لمعالجة المشكلات الداخلية فى سوريا ، وانتقلت أهمية القضية الفلسطينية بالتالى لدى السوريين من المركز إلى المحيط .

وفى العراق استطاع نورى السعيد السيطرة على الموقف ، وقام بحل البرلمان وإلغاء ١٨ جريدة وقد حاول نورى السعيد فى أوائل عام ١٩٥٦ التقدم ، بتأييد

من بريطانيا ، باقتراح لإقرار السلام على أساس العودة من حيث المبدأ إلى خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين ، لكن هذا الاقتراح لم يكتب له النجاح . أما الشعب الفلسطيني فقد تعرض فى هذه الفترة للمزيد من المساومات والمزايدات والمتاجرات بقضيته ، التى تاجر بها الزعماء العرب ، وجعلوها جسراً للعبور من تناقضاتهم ، وسوف تستمر هذه العلاقة لفترة طويلة قبل أن تأخذ هذه القضية الطريق الصحيح لعلاجها من جانب مصر ، بعد مضى حوالى ٣٠ سنة من الدوران فى حلقة مفرغة . وانصرف الشعب الفلسطينى فى هذه الفترة إلى تأمين لقمة عيشه ، فتفرق فى أرجاء الأرض ، وانضوى تحت لواء الأحزاب السياسية المختلفة فى العالم العربى ، مما أدى إلى تسرب خلافات هذه الأحزاب وانعكاساتها على الفلسطينيين أنفسهم الذين استطاع بعضهم – بالرغم من ذلك – تحقيق ثروات طائلة أما الفلسطينيون تحت الاحتلال الإسرائيلى فكانوا ممزقين مشتتين ، وتعرضوا لتمييز عنصرى مارسته إسرائيل تجاههم ، وأخذوا يعانون من حرمانهم من الحقوق والحريات الأساسية تحت سمع وبصر الزعماء العرب الذين وقفوا موقف المتفرجين . ولم يتخذوا زمام المبادرة للحلول السلمية ، إلا بعضاً من الزعماء العرب .. الذين تركوا الباب موارباً فى التحدث مع الإسرائيليين ، ولكن بكثير من الحرص والحذر خشية أن يفتضح أمرهم أمام الآخرين حيث كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً فى توجس وخيفة .

وفى مواجهة هذه الأحداث على المسرح العربى لم يهتم السوفييت إطلاقا بإيجاد أى حل للمشكلة الفلسطينية فى الفترة من ١٩٥٠ – ١٩٥٢ ، وكان المنطق السوفييتى دائماً إجرائياً ، حتى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين لم تشكل أى اهتمام بالنسبة للسوفيت الذين وضعوا إسرائيل خارج نطاق المسئولية كليًّا – أى

مسئولية إسرائيل عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين..

وامتنع السوفييت باستمرار عن التصويت على القرارات المتعلقة باللاجئين الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٥٥ ، ولم يسهم الاتحاد السوفييتى قط فى الدعم المالى لوكالة غوث اللاجئين– حتى عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم لم تلق اهتماماً من جانب السوفيت ، وتحدثوا بدلاً من ذلك بالكلام فقط .. عن تحسين أوضاعهم والتخفيف عنهم .

وعموماً فإن السوفييت لم يكونوا متحمسين للحديث عن حق عودة عرب فلسطين إليها أو حتى التعويض ، وهو ما يدلنا على استمرار الموقف السوفييتى المؤيد ليهود العالم فى العودة إلى فلسطين طوال النصف الثانى من الأربعينات والفترة اللاحقة ، وبالنسبة للقدس وأوضاعها نجد أن السوفييت قد امتنعوا عن التصويت فى كل الأمور المتعلقة بها ، وهناك عديد من الباحثين يرون أن السوفييت يؤيدون القدس باعتبارها مدينة يهودية ، ويستدلون على هذا الرأى بكثير من الشواهد ، أهمها أن السفير السوفييتى فى إسرائيل عام ١٩٥٤ قد قدم أوراق اعتماده آنئذ للحكومة الإسرائيلية فى القدس ، على أساس أنها عاصمة لإسرائيل ، وقد قوبل ذلك بالارتياح والسرور من جانب إسرائيل ، لأن معظم الدول لم تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل .

ومن الأرجح أن الدول الغربية الكبرى قد نظرت بحسد إلى المكاسب التى حققها السوفييت فى الشرق الأوسط نتيجة انحيازهم إلى جانب إسرائيل ، ويرتبط ذلك بتوقيع التصريح أو الإعلان الثلاثى عام ١٩٥٠ فى ذكرى مرور عام على توقيع اتفاقيات الهدنة حيث رأت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا التى خشيت جميعها من استمرار استفادة الاتحاد السوفييتى من تأييده

لإسرائيل ، فبادرت إلى إصدار هذا التصريح الذى يستنتج منه أن الدول الغربية الثلاثة تعتبر حدود الهدنة حدوداً نهائية ، وضرورة إقامة التوازن فى التسليح بين الدول العربية مجتمعة وبين إسرائيل منفردة ، وشأن الدول العربية التى وقعت دائماً فى أسر رد الفعل بخصوص المشكلة الفلسطينية ولم تتخذ قط زمام المبادأة فى إيجاد حل سلمى ، فقد جاء رد الدول العربية والجامعة العربية على التصريح الثلاثى رداً مؤسفاً ، ولم تجاهر برد قوى عليه ، أما السوفييت فهناك من المؤرخين الغربيين المعاصرين من يرون أن الدول الكبرى لو كانت قد اشتركت جميعها فى هذا التصريح الثلاثى . لكان هذا إعلاناً حكيماً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك حيث إن الاتحاد السوفييتى لم يكن من الموقعين عليه ، وعلى ذلك فقد تسبب السوفييت فى جعل هذا التصريح يفقد كل تأثير أو فعالية .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو : لماذا سكت العرب فى هذه الفترة عن تأييد الاتحاد السوفييتى لإسرائيل ؟ والإجابة : أن سياسة السوفييت كانت تتذبذب آنئذ بين شد وجذب بين العرب والاسرائيليين ، كما أن سياستهم المعلنة قد حولت الأنظار عنهم ، وجعلت العرب يركزون انتقادهم على الدول الغربية ، واستمر السوفييت لا ينحرفون أبداً عن طريق علاقات الصداقة مع إسرائيل ، وبالرغم من تلبد الجو بالغيوم بين السوفييت وإسرائيل ، آنئذ فقد استمرت القضية الفلسطينية لا تستأثر باهتمام السوفييت الذين دأبوا على عدم المناقشة أو على الامتناع عن التصويت على جميع القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة بخصوص النزاع العربى الإسرائيلى ، وهو مايمكن تفسيره أيضاً بانحياز السوفييت إلى إسرائيل . أما موقف مصر فى هذه الفترة ، فالملاحظ أن الرئيس عبد الناصر كان لديه الاهتمام بتسوية النزاع ، وقد شجع الاتصالات مع موشى

شاريت ، وحدثت لقاءات سرية فى إحدى العواصم الأوربية بين مسئولين مصريين وإسرائيليين ، غير أن عودة بن جوريون إلى الحكم فى إسرائيل وتصعيد حوادث الحدود بين مصر وإسرائيل سرعان ماقوضت أسس هذه المفاوضات ، وكان موشى شاريت قد توقع لهذا الحوار أن يسفر عن الاعتراف الفعلى بإسرائيل من جانب الدول العربية على أن تتزعم مصر السير فى هذا الاتجاه .

واتسمت هذه الفترة بتكرار الحوادث على الحدود بطول خطوط الهدنة ، ثم انتهت بالعودة إلى الحرب عام ١٩٥٦ ، أما السوفييت فلم يعيروا أى انتباه للاتهامات المتبادلة بين مصر وإسرائيل ، إلا فى موقف واحد له مغزاه .. حين تجاهل المندوب السوفييتى الشكوى الإسرائيلية ضد مصر ، وعبر عن التعاطف مع حكومة وشعب مصر فيما يتعلق بغارة غزة عام ١٩٥٥ ، أما مغزى هذا الموقف فيعود إلى ظهور تقارير صحفية حول التوصل إلى صفقة الأسلحة مع مصر والتى تمت فى ذلك الحين ، وأيضاً ما شهدته هذه الفترة من المفاوضات المصرية مع الغرب لتمويل مشروع السد العالى والذى أدى إلى العدوان الثلاثى على مصر ، وكان الموقف السوفييتى من هذا العدوان هو تأييد انسحاب إسرائيل من الأراضى المصرية .

غير أن هذا الانسحاب قد تم ليس بسبب الموقف السوفييتى ، ولكنه فى الحقيقة نتيجة لضغط الرئيس الأمريكى آيزنهاور الذى مارسه على إسرائيل ، وهنا تنبغى الإشارة إلى أن السوفييت لم يشتركوا فى قوات الطوارئ الدولية عام ١٩٥٦ ، كذلك فإنهم لم يشتركوا أيضاً قبل ذلك مع مراقبى الهدنة فى عام ١٩٤٩ أو فى لجنة التوفيق الدولية ١٩٥٠ وفى حين استخدمت الولايات المتحدة أسلوب الضغط على إسرائيل حتى تنفذ الانسحاب .. لدرجة أن الرئيس

آيزنهاور وجه خطاباً تليفزيونيا للشعب الأمريكي لإقناعه بسياسته فى الشرق الأوسط ، فإن كل مافعله السوفييت هو استخدام عبارات شديدة اللهجة مما أفقدها وزنها ، وجعل لها وزناً دعائياً لا أكثر ، وفى سوريا كانت دمشق من أكثر العواصم العربية ضرباً على وتر «الأثر الذى تركه الإنذار السوفييتى» أما القاهرة فلم تنكر قيمة التدخل الأمريكى دولياً فى الأزمة ، وحدث أن شكا السفير الأمريكى فى القاهرة أن أجهزة الإعلام لاتذكر الولايات المتحدة ودورها فى الأزمة إلا نادراً ، فجاء رد عبد الناصر باعترافه واعتراف الشعب المصرى بصداقة الولايات المتحدة قائلاً : «إنه بعد اشتراك بريطانيا وفرنسا فى العدوان فإن الولايات المتحدة تبقى الصديق الوحيد لمصر» . ولم يغفل عبد الناصر الدور الأمريكى المؤيد لمصر عام ١٩٥٦ ، بل إنه أشاد بمساندة أمريكا ووقوفها بجانب مصر فى خطابه الشهير الذى ألقاه فى الجامع الأزهر آنئذ .

وإذا كان هناك رابح من عدوان ١٩٥٦ فهو إسرائيل ، حيث حصلت على بعض المزايا الدائمة ، فقد أتيح لإسرائيل استخدام خليج العقبة الذى كان محظوراً عليها منذ سنوات ، وهدم الإسرائيليون نظام الجيش المصرى ، وأتلفوا جانباً كبيراً من أحدث مالديه من أسلحة ومعدات ، كما حصل الإسرائيليون على ميزة لايستهان بها ، وهى نزع سلاح شرم الشيخ ، مما حقق لهم الملاحة فى خليج العقبة وإزالة الحصار الذى كان مفروضاً على ميناء إيلات ، وصور الإسرائيليون عبد الناصر طاغية متعطشاً إلى السلطة ، معتبرين إياه بأنه يشكل الخطر الأعظم على إسرائيل ، أما السوفييت فإن كل مافعلوه هو التهديد بلهجات قاسية لإسرائيل ، غير أن هذه التهديدات اللفظية ماكانت لتروع إسرائيل التى وافقت على الانسحاب من الأراضى المصرية المحتلة بفضل الضغوط الأمريكية التى كانت

أكثر تأثيراً وفعالية .

وبالنسبة لمصر فإن عبد الناصر قد تلقى درساً هو الآخر ، حيث عكست أحداث عام ١٩٥٦ الأليمة إصراراً من عبد الناصر على ألا يسمح لنفسه أن تحتويه الأحداث الجارية والقضايا الثانوية ، وطنطنة أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعات عربية ، للدخول فى حرب ضد إسرائيل ، وصمد عبد الناصر بحزم ملحوظ فى وجه الغمز المتكرر من جانب عديد من الدول العربية .

وبالنسبة لقضية فلسطين فقد خرجت القضية خاسرة نظراً لغياب الاستراتيجية العربية ، ولم يكن هناك أى تنسيق بين السياسات العربية التى تعددت ، واستمر العرب يتجاهلون الهزيمة التى حاقت بهم وبالقضية الفلسطينية ، كما استمروا يكررون مقولات من أمثال أن إسرائيل مخلب الاستعمار ، وهو ما أضر بالقضية الفلسطينية ، وهذه الهزيمة – التى صورت للرأى العام المصرى آنئذ بأنها نصر سياسى – قد تركت تأثيراً شديداً فى نفس عبد الناصر ؛ إذ خرج منها مقدراً للأمور بتبصر وترو أكثر من أى وقت مضى ، وإذا كان تدمير إسرائيل فى نظر عبد الناصر هو الهدف الأسمى فإنه لم يعد الهدف العاجل .

وطوال السنوات التالية لعدوان ١٩٥٦ اقتصرت المشكلة الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى على استخدام أساليب الحرب الباردة ، وأخذت القرارات تتوالى عاماً بعد عام أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، تدعو الطرفين فى كثير من الأحيان – ولكن دون جدوى – إلى تسوية مابينهما من نزاع بالطرق السلمية ، وإلى إيجاد الحل الملائم لمصير اللاجئين الفلسطينيين على أساس من القرارات السابقة .

أما السوفييت فقد أخذ نفوذهم يمتد خطوة بعد أخرى فى المنطقة العربية ، ويزيد تدخلهم فى الدول العربية ، وخاصة بالنسبة لسوريا ، التى خضعت خضوعاً يكاد يكون تاماً للحماية السوفيتية ، وبالرغم من أن عبد الناصر لم يقطع اتصالاته مع الولايات المتحدة فقد بدا الاتحاد السوفييتى كأنه بمثابة «منقذ العرب من الاستعمار الجديد» وهو ماانعكس أيضاً على القضية الفلسطينية بأسوأ النتائج ، حتى الكتابات العربية فى تلك الفترة ارتكز معظمها على مقولات من نوع أن إسرائيل أداة للإمبريالية الغربية ، واستمرار للنفوذ الغربى ، وكانت لهذا التفسير مخاطرة ، أو على الأقل مخاطرة الاكتفاء به ، وأخطأ العرب فى توصيف هذه الظاهرة ، وكان أولى بهم فهم وتفسير نموها وتطورها ، وتبع ذلك انزلاق العرب إلى قاع المستنقع . أى إلى أخطر نكسة واجهتها الأمة العربية فى تاريخها المعاصر عام ١٩٦٧ ..

وعموماً فقد ارتكزت الكتابات العربية فى معظمها فى الفترة اللاحقة للعدوان الثلاثى ١٩٥٦ على مقولات من نوع أن إسرائيل أداة للإمبريالية الغربية والنفوذ الغربى فى المنطقة العربية . وكان لهذا التفسير مخاطره لأن السوفييت أيضاً كان لهم النصيب الأوفى فى إنشاء وتدعيم الدولة اليهودية ، لكن العرب تناسوا وتجاهلوا تماماً ذلك ، وتبع ذلك التقييم العربى الخاطئ لفهم وتفسير نمو وتطور القضية الفلسطينية بكل جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق برفض الاعتراف بالوجود الإسرائيلى الذى أصر العرب على موقفهم منه ، وبالمقابل فإن إسرائيل أصرت على عنادها وتنكرها تماماً للقرارات الأساسية الخاصة بالقضية الفلسطينية .

وأخذ كلا الجانبين : العربى والإسرائيلى يقلل من إنجازات الجانب الآخر ، وإرجاع هذه الإنجازات للقوى الأخرى من خارج المنطقة وترددت على

الصعيدين العربى والإسرائيلى تفسيرات مثل : خَذَلَنا الروس . أو تجاهلنا الأمريكيون ، وكان هذا تبريراً سياسيًّا إضافيًّا لتدخل القوى العظمى فى المنطقة ، فالنفوذ الشيوعى امتد ليشمل الأردن ذاته . وهو ماجعل الولايات المتحدة توجه عنايتها للأردن ، وتعلن عن قلقها من امتداد السيطرة الشيوعية على البلاد ، وخاصة داخل الجيش الأردنى ، حيث وزعت منشورات على نطاق واسع بين الوحدات العسكرية ، بل قامت ثلاث محاولات انقلابية للإطاحة بحكم الملك حسين .. المحاولة الأولى تزعمها أحد الضباط الذين هم من أصل فلسطينى ، أما المحاولتان الأخريان فإحداهما فى مارس ١٩٥٩ والثانية فى أغسطس ١٩٦٠ وكان هدفها أيضا إسقاط الملك حسين ، والذى تعرض أيضا لمحاولة قتله عام ١٩٦١ . واعتبرت إسرائيل ذلك بمثابة حالة حرب تلقائية تخوضها إذا ماسيطرت على الأردن قيادة أخرى بخلاف قيادة الملك حسين .

وفى سوريا انقلب الشيوعيون ضد عبد الناصر ووصفوه بالاستبدادية ، واتهموا سياسته الخارجية بأنها سائرة فى فلك تيتو ، وبما لايتفق بما فيه الكفاية وسياسة الاتحاد السوفيتى ، وهو ما أدى إلى مزيد من الغضب والتشدد من جانب عبد الناصر ، وانعكس ذلك على إلقاء القبض على مجموعة هامة من الشيوعيين المصريين فى يناير ١٩٥٩ .

وكانت هذه هى مرحلة الخلاف بين مصر والاتحاد السوفيتى ، والذى يرجع سببه أيضاً إلى سيطرة الشيوعيين على العراق ، وهو ماجعل عبد الناصر يهاجم السوفييت بعنف ، ويتصدى لخروشوف نفسه حينما حاول الدفاع عنهم ، وقد هدد ذلك تماماً العلاقات بين الدولتين واستمر هذا الخلاف لمدة عامين ، تأكد السوفييت خلالها أن مصالحهم مهددة فى المنطقة العربية برمتها ، لأن مصر لها

الدور القيادى فى الوطن العربى ، وأن العرب جميعهم يتأثرون بتصرفاتها . وأن الاتحاد السوفييتى إذا خسر مصر ، فإنه سيخسر منطقة الشرق الأوسط كلها من المحيط إلى الخليج ، والعكس صحيح فيما لو استطاع السوفييت استمالة مصر ، وكسب صداقتها فإن ذلك سيجعلهم يستميلون العرب ، ويضمن السوفييت بذلك أمانهم الكامل لحزامهم الجنوبى . لكن السوفييت برغم استقطابهم لمصر حتى منتصف الستينات فإنهم لم يتورطوا قط فى أى عمل عسكرى يحمى مصر فى هذه الفترة ، وكان السوفييت قد رفضوا تماماً حماية حدود مصر من التهديد الخارجى أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ حين رفض طلب شكرى القوتلى رئيس سوريا آن ذاك ، بالتدخل المسلح إلى جانب مصر ضد دول العدوان الثلاثى ، وحتى عندما رفض السوفييت طلب عبد الناصر التدخل للمساعدة بأية صورة ، بل إن خروشوف وصف عبد الناصر بأنه مندفع .. انفعالى .. لايستطيع أن يفرض إرادته على العالم العربى ، واستشاط عبد الناصر غضباً . وقال فى إحدى المناسبات : «إن الشيوعيين يدبرون المظاهرات ويهتفون ضد قادة الجمهورية العربية ، وضد شعبنا ، ولم يستجب لهم فى العالم العربى سوى العملاء .. وإننا نعتبر هؤلاء الشيوعيين عملاء للأجنبى .. وإن الإرهاب الشيوعى الذى يتجلى اليوم فى بغداد ضد الجمهورية العربية لن يزيد مصر إلا إصراراً على رسالتها » .. ووصف عبد الناصر الشيوعيين بأنهم «عملاء للاستعمار ، يعملون بوحى خارجى ، ولايعملون لمصلحة بلدهم » وأعلن أنه «لن يسمح بقيام حزب شيوعى فى البلاد .. وأنه لايمكن أن يتمكن الشيوعيون العملاء من مصر على الإطلاق ، وأنه حين منع الحزب الشيوعى من العمل فى مصر . فقد كان يعمل على الحفاظ على مقدسات مصر وعلى قوميتها » .

وهكذا جاءت محاولات الوحدة بين العرب فى هذه الفترة – الوحدة المصرية السورية فى فبراير ١٩٥٨ ، والاتحاد الهاشمى بين العراق والأردن ، ثم انضمام اليمن للوحدة المصرية السورية – جاءت هذه المحاولات وانهيارها لتطبع العلاقات العربية وسياساتها بازدواجية المصالح الخاصة ، وأضحت سياسات الدول العربية تعانى من الإحباط ، ومن عجزها عن إقناع الجماهير بأهمية بناء المجتمع العربى الواحد ، وبعد أن تكشف ميل النظم العسكرية آنئذ للتهوين من دور الأحزاب والمنظمات السياسية وانعكس ذلك على القضية الفلسطينية التى انتقلت أهميتها فى هذه الفترة من المركز إلى المحيط ، واستمر ذلك حتى نهاية عام ١٩٦٣ ، ماعدا ما أسهم به الرئيس التونسى الحبيب بورقيبه خلال زياراته المطولة فى دول المنطقة فى شهرى فبراير ومارس ١٩٦٢ . ودعوته لاتباع سياسة المراحل التى اتبعتها تونس ، والسير على نهجها لتسوية النزاع العربى الإسرائيلى بل إن بورقيبة حينما تعرض لمحاولات الوحدة بين العرب اعتبرها مجرد أسطورة ، فى الوقت الذى أكد بورقيبة على «الحقيقة التاريخية» لإسرائيل . وهذا الرأى جعل العلاقات العربية تهتز بشدة وتزيد من انقسامات العرب انقساماً على انقساماتهم .

أما القضية الفلسطينية فلم يتوقف قط استمرار النكسات والصفعات الموجهة إليها التى لازمتها فى هذه الفترة . وكان مجلس الجامعة العربية قد اتخذ فى فبراير ١٩٦٠ قراراً أكد فيه أن استمرار إسرائيل فى محاولاتها تحويل مياه نهر الأردن يعد عملا عدائيًّا ضد الدول العربية . وفى أغسطس من العام نفسه عقد المجلس اجتماعاً غير عادى فى اشتورة بلبنان ، حيث تقرر تشكيل لجنة فنية خاصة تضع تقريراً أمام الاجتماع الثانى لمجلس وزراء الخارجية العرب إلى جانب لجنة عسكرية

تضم كل الدول الأعضاء لوضع خطة لمواجهة الاحتمالات . وكانت إسرائيل قد أنهت بالفعل مرحلتها الأولى فى تحويل مياه نهر الأردن ، وهو ماجعل مصر تدعو لعقد مؤتمر قمة عربى فى القاهرة فى يناير ١٩٦٤ ، واتخذ المؤتمر ثلاثة قرارات هامة : إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الفلسطينى ، وتنفيذ خطة تحويل مياه نهر الأردن لإحباط المشروع الإسرائيلى ، لكن مشروع تحويل مياه نهر الأردن ركن على الرف ، ودخل فى دوامة الحرب الباردة بين العرب ، ثم انتهى المشروع إلى الجمود تماما . وهكذا سلمت مصر بصعوبة تحقيق الوحدة العربية .

وعلى الصعيد الإسرائيلى استقال بن جوريون فى ١٦ يونيو ١٩٦٣ بعد أن شعر بالعداء المحيط به نتيجة لافتضاح أمره بعد تورطه فى فضيحة لافون – وزير الدفاع الأسبق – والذى اكتسبت شعبية فى أوساط الرأى العام الإسرائيلى بوصفه ضحية لبن جوريون بعد أن كشف النقاب عن حقيقة الأزمة التى استمرت سنوات فى ظل ستار من السرية بفضل جهد بن جوريون .

وتتلخص هذه الأزمة التى لايعيرها الرأى العام العربى سوى أهمية ثانوية للغاية ، برغم أنها أثرت – ولا تزال – بعمق على النخبة الإسرائيلية الحاكمة – ترجع قصة لافون إلى أواسط الخمسينات حينما عاد بن جوريون إلى الحكم على أثر قضية لافون الغامضة ، وكان لافون وزيراً للدفاع وهو خصم لموشى ديان وشمعون بيريز ، وأحد ساسة الماباى المرموقين – آنئذ – وقد أدانه رفاقه بأنه مسئول عن عملية غير مضمونة تم تنفيذها فى مصر ، وقد وقعت حوادث هذه العملية فى القاهرة بناء على خطة استفزازية وضعتها المخابرات الإسرائيلية بهدف إجبار بريطانيا – قبيل منتصف الخمسينات – على البقاء فى مصر ، عن طريق

عمليات تخريبية ضدها تبدو فى ظاهرها مصرية ، ولكنها فى الواقع من تدبير عملاء إسرائيليين ، واعتبر لافون نفسه أنه ذهب ضحية لمناورات قام بها كل من موشى ديان وشمعون بيريز لإثقال عاتقه بمسئولية كان يجب أن يتحملها بعض قادة أجهزة المخابرات أو شمعون بيريز نفسه ، كما رأى أن التعليمات الصادرة بإحاطة العمليات بالسرية قد لعبت دورا فى اتجاه واحد لتحول دون تبرئته وقد نتج عن هذه العملية انفجار ثلاث قنابل فى القاهرة ، وأظهر التحقيق المصرى أن القصد منها هو إفساد العلاقات بين مصر من جانب ، وإنجلترا والولايات المتحدة من جانب آخر. وكان شاريت -- الذى كان يتولى الحكم قبل بن جوريون – قد وجه نداءًا إلى عبد الناصر بالرأفة تجاه مرتكبى هذه الجريمة ، لكن عبد الناصر رفض ذلك ، ونفذ حكم الإعدام فى ثلاثة أشخاص ، فلما أصبح لافون سكرتيراً عاماً لاتحاد العمال « الهستدروت » طلب أن يرد إليه اعتباره ، وهاجم أجهزة الجيش وكلا من موشى ديان وشمعون بيريز أمام اللجنة البرلمانية التى أعلنت براءة لافون ، الذى اكتسب بالتالى شعبية بوصفه ضحية لاستبداد بن جوريون . وتم التنديد علناً أمام الرأى العام الإسرائيلى بالمناورات السرية للدوائر العسكرية ، والارتباط الوثيق بين رئيس الحكومة ، وهذه الدوائر خارج المحافل الديموقراطية . وقد أضر هذا الموقف بين جوريون وأصبح العناد سمة من سمات شيخوخته ولم يلبث أن استقال واعتكف فى مستوطنة سدى بوكر فى النقب ، وخلفه ليفى أشكول الذى يوصف بأنه شخص غير لبق ومتردد ، ولكنه من ناحية أخرى قد اتسم بمهارته فى التنظيم وواقعيته وعدم ميله للمغامرات وشعوره بأن إسرائيل قد أرهقها العبء العسكرى ، وأن الدولة اليهودية تضيق ذرعاً بالتعبئة بصورة دورية ، وأن الرأى العام الإسرائيلى سرعان ما أصبح يتخلى

عن هذه التعبئة .

وهذا المناخ الذى ساده التخلص من الطابع الصهيونى من جانب الرأى العام الإسرائيلى – هذا المناخ اعتبره المتطرفون هناك تدهوراً نحو الهاوية بالدولة اليهودية ، لكن ليفى أشكول بالرغم من ذلك أراد أن يسلك فى مجال السياسة الخارجية طرقاً أخرى غير تلك السياسة المتطرفة لسلفه بن جوريون ، وكان يريد أن يستعيد بخطه السياسى نهج موشى شاريت – رئيس الوزراء الأسبق – الذى أراد تحقيق اتجاه أكثر تصالحا مع العرب .

وقد اندفع أشكول بهذا السعى لإيجاد طرق لتفادى سباق التسلح ، وإلى اللجوء إلى الأمم المتحدة والتحلل من المساندة الأمريكية ومع التقارب مع السوفيت ، وقد رفض أن يعيد «تلميذى» بن جوريون وهما : موشى ديان وشمعون بيريز ، إلى وزارة الدفاع عندما تولى تشكيل وزارته ، لكن تقلب الرأى العام الإسرائيلى ظهر آنئذ عبر نقاش أجرته وقادته صحيفة معاريف . وقد لاحظ الإسرائيليون البارزون أن وضع خاتمة للنزاع العربى الإسرائيلى مع التساهل إلى حد ما مع الفلسطينيين سوف يكون مهمة شاقة للغاية ،

وبالرغم من العديد من المحاولات التى بذلت لتخفيف حدة النزاع العربى الإسرائيلى ، والتى جاءت من خارج المنطقة فإن مشكلة تحويل مياه نهر الأردن جاءت لتهدد بتجديد النزاع بعد أن كان قد فقد جانباً من حدته ، وأصبحت القضية الفلسطينية منذ ذلك الوقت متبلورة حول هذا الموضوع ، حتى إن السنوات الواقعة بين العدوان الثلاثى وحرب ١٩٦٧ يمكن أن توصف بأن النزاع حول مياه نهر الأردن هو الذى لعب دوراً هاماً فى المشكلة الفلسطينية ، وخاصة

بعد أن انساب نهر الأردن إلى صحراء النقب فى عام ١٩٦٤ ولأول مرة فى تاريخ فلسطين ، وهو ماجعل الرأى العام العربى يتعرض لصدمة عنيفة ويستولى عليه شعور جارف بخيبة الأمل ، واستندت المعارضة العربية فى هذا الموضوع إلى اعتبارات بعضها قانونى وبعضها الآخر اقتصادى وسياسى .

ومن الطريف أن الأردن الذى يمسه الضرر مباشرة من جراء ذلك لم يفعل قط ما يمس مصالح إسرائيل بهذا الخصوص .

أما سوريا فكانت تسودها التوترات الداخلية والخارجية على السواء ، فمن ناحية أعلنت عن نيتها فى العمل منفردة ، وكذلك هناك عوامل تجعل هذه المنطقة مهيأة للانفجار ، فإلى جانب مشكلة تحويل مياه نهر الأردن ، كان هناك النزاع حول حقوق الصيد فى بحيرة طبرية ووضع المناطق المنزوعة السلاح .
وعلى الصعيد العربى أيضاً .. كانت هناك مسألتان : وهما الخطر المتمثل فى حزب البعث فى سوريا والعراق ، وأيضاً المساعدات المصرية المستمرة ، والإمدادات إلى اليمن ، وهو ماكان يشكل عبئاً ماليًّا وعسكريًّا على مصر .

وفى تقييم مؤتمرات القمة العربية فى هذه الفترة يمكن القول أن الدول العربية لم تخل قط من التنافس والاختلاف بينها ، حتى إن بعضها لقب بالدول العربية الثورية ، والأخريات لقبت بالدول الرجعية ، وكانت الأولى ترتبط بالسوفيت ، أما الثانية فكانت محافظة وتميل إلى الغرب . وانعكس ذلك بالطبع على القضية الفلسطينية ، فالأردن الذى كان من الدول الرجعية آنئذ كان عازفاً تماماً عن الارتباط بالقضية الفلسطينية ، حتى إن الملك (حسين) عبر عن موقفه من منظمة التحرير الفلسطينية فى رسالة بعث بها إلى عبد الناصر يقول فيها :

«أما المنظمة فقد فهمنا أن تشكيلها ماهو إلا لملء الفراغ فى المجتمع الدولى» .

أما سوريا فإن الرأى العام العربى قد يدهش الآن من موقفها الحالى تجاه جهود مصر للسلام ومقارنة ذلك بموقفها آنئذ حيث طالب حزب البعث فى سوريا بقيام الحكومة الفلسطينية فى المنطقة المتبقية فى فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) وأن تقوم العضوية فى مؤسسات هذا الكيان الفلسطينى على أساس الانتخابات ، وهو نفس ما تطالب به مصر حاليًا .

إن المتتبع لمناقشات سوريا فى مؤتمرات القمة أيضاً لايسعه إلا أن يضيق بالمهاترات التى يمكن أن نستشفها من رد عبد الناصر على الرئيس اللبنانى شارل حلو خلال زيارته للقاهرة فى أول مايو ١٩٦٥ . فقد تناول عبد الناصر بإسهاب موقف سوريا قائلا : «نعمل إيه .. البعث فى سوريا هو أصل المشكلة .. المزايدات السورية اللى جابت لنا المشكلة .. موضوع نهر الأردن جزء من مشكلة فلسطين .. ومشكلة فلسطين محتاجة لوقت طويل واستعداد كبير .. البعث عاوزنى أحرر فلسطين .. أنا مااقدرش أحرر فلسطين .. البعث طرح شعاراً لتحرير فلسطين .. اليوم قبل الغد .. البعث عاوز يحكم سوريا ويحكم البلاد العربية .. إسرائيل أخيراً ضربت مواقع العمل السورية .. صاحت سوريا .. لازم نهاجم .. أنا بأقول نحن لانقدر أن نهاجم .. يمكن لانقدر حتى أن ندافع فى الظروف الحالية» . وفى إحدى مناقشات مؤتمرات القمة بين القادة العرب نقل عن الرئيس السورى أمين الحافظ قوله : «اعطونى ٤٨ ساعة لتدمير إسرائيل تماما» فأجابه الرئيس الجزائرى بتهكم : «تمهل يا أخى ولا تقلق وسوف نعطيك أربعة أيام كاملة» .

وهكذا أظهر عبد الناصر تبرمه صراحة من البعث والموقف السورى ، ولم

ترض كل من الأردن والسعودية بطلب مصر تأجيل مؤتمر القمة العربى ، بل إن الأردن قام بشن هجوم إعلامى على مصر . واتسمت فترة مابعد مؤتمرات القمة بتوتر العلاقات وبالاختلافات والاتهامات المتبادلة والتشكيك ، فالسعودية والأردن غير راضيتين عن مصر . وسوريا والأردن وصلت مسألة توتر العلاقات بينهما إلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بعد أن اتهمت سوريا الأردن بتدبير انقلاب ضدها . والعمل العربى الموحد أصابه الشلل ، وأحدقت به أخطار وأضرار بالغة وحتى الحد الأدنى من التنسيق بين الخطط كان بغير جدوى ، والعمل الفلسطينى انعكست عليه هو الآخر هذه الأمراض والعلل فانقسم فى منتصف الستينات إلى صيغتين .. إحداهما منظمة التحرير الفلسطينية ، والأخرى هى منظمة فتح التى أسسها ياسر عرفات مع فريق من زملائه الذين كانوا يدرسون فى ألمانيا بجامعة شتوتجارت ، وفى مصر لم يكن عبدالناصر راضياً عن أسلوب فتح فى « تصفية الدولة اليهودية وتقطيع وجودها » لم يرض عبدالناصر عن ذلك قط ، ولم يكن مستعداً أيضاً لشن مثل هذه الحرب التى لن تبقى ولن تذر : وإنه من الجنون استفزاز إسرائيل للقتال ، خصوصاً أن نصف الجيش المصرى يقاتل فى اليمن وهذا ما جعل عبد الناصر يلتزم الحرص والحذر فى معالجة المشكلة الفلسطينية أما السوفييت فكل ما فعلوه هو التسخين السياسى بعبارات منتقاة من أمثال : «تأييد مصر بكل إمكاناته ، وتقديم المساعدة الممكنة لها»[1] ، لكن هذه المساعدة الممكنة لم تكن تتناسب مع المساعدات الأمريكية غير المحدودة لإسرائيل .

وهكذا ظل الموقف مفتوحاً لتطورات محتملة ، فعلى صعيد القطبين الكبيرين

(١) من تصريح لألكسى كوسجين فى تلك الفترة .

فى هذه الفترة اتسمت العلاقات ببدء ظهور علامات تشير إلى تحول نظام الاستقطاب الثنائى ، وتفكك عدم الانحياز وسط هذا النظام الدولى الذى وصف بمجموعة القواعد المنظمة لسلوكه ، وغموض دوافع أهدافه .. وكانت الفرصة مواتية لكى تضرب إسرائيل ضربتها التى أعدت لها بعناية ومهارية وحذق ، حيث جاء القرار الإسرائيلى مرتكزاً بالطبع على التأييد الضمنى من جانب الولايات المتحدة ، مع التراجع السوفييتى تماماً عن الحلبة . فكانت التطورات الآتية : الغارة على قرية السموع الأردنية فى نوفمبر ١٩٦٦ ثم الغارة على سوريا فى أبريل ١٩٦٧ التى صدرت على أثرها العديد من التصريحات بضرورة التقدم نحو دمشق لإسقاط حكومتها ، وكان أن حشدت مصر قواتها فى سيناء وأغلقت خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية ..

كانت المبادرة فى يد إسرائيل من بدايتها إلى نهايتها ، ومن ثم جاءت ردود الفعل العربية وليدة ساعتها .. فعاليتها معدومة .. ووجهت إسرائيل ضربتها فى ٥ يونيو ١٩٦٧ لينتقل النزاع إلى مرحلة أخرى من مراحل تطوره .

وتجدر الإشارة إلى أنه قد سادت العالم العربى عشية حرب ١٩٦٧ حالة تمزق ، بالإضافة إلى حرب الجبهات العربية والحرب الباردة بين الدول العربية ، والتى أصابت العمل العربى بأضرار بالغة ، حيث بلغت المأساة قمتها حين بدأت الدول العربية عبثاً فى تنسيق خططها وجهودها ، حتى رؤساء الدول العربية آنئذ استطاعوا أن «يبلفوا» — كعاداتهم — الفلسطينيين ، فعمدوا فى آخر مؤتمر للقمة فى أواسط الستينات إلى التشدق بعبارات كلامية لا تقدم ولا تؤخر ، ولم يكن هذا غريباً على المسرح العربى الذى كان يجيش بالأزمات والتمردات والمنازعات .

وعلى الصعيد الإسرائيلى أمضت إسرائيل سنوات ١٩٦٥ – ١٩٦٧ فى إعادة تقييم لموقفها العالمى ، فى محاولات رامية لتغيير علاقاتها مع الولايات المتحدة ، وحدث انشقاق بين القادة الإسرائيليين حول الموقف الذى ينبغى أن تتخذه إسرائيل من الدول العربية ، وكانت حجة موشى ديان أن النصر العسكرى هو الطريقة الوحيدة لحمل العرب فى نهاية الأمر على قبول إسرائيل .

ومن المفيد أن يتذكر المرء الحالة الاقتصادية المتدهورة تدهوراً مطرداً فى إسرائيل ، ومحاولتها إبعاد المتاعب الداخلية بشن الحرب .

ومع هذا فليست مشاكل إسرائيل الداخلية هى الدافع الوحيد وراء حرب ١٩٦٧ ، فقد كان هناك أيضاً إدراك إسرائيل أن الوقت قد حان لكى توجه إسرائيل ضربة ضد العرب ، ومن ناحية أخرى كانت إسرائيل قد اطمأنت إلى الدعم السياسى من الولايات المتحدة الأمريكية ، بفضل التأكيدات التى تلقتها من حكومتها أثناء زيارة ليفى أشكول لها ، مع نجاح إسرائيل فى إقناع الولايات المتحدة بتزويدها بالسلاح ، الأمر الذى تحقق فعلا مع بداية عام ١٩٦٦ بوصول الدبابات الأمريكية وعقد صفقة الطائرات «سكاى هوك» فى نفس العام ، وبذلك اكتملت عناصر الدعم الأمريكى بجانبيه السياسى والعسكرى ، فى حين كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والدول العربية «التقدمية» تزداد سوءاً فوق سوء .

كذلك أظهرت مؤتمرات القمة العربية تصريحاتها الطائشة – أظهرت الدول العربية فى شكل الدول المعتدية التى تبغى تدمير إسرائيل وإلقاءها فى البحر ، وقد انتهزت إسرائيل أيضاً فرصة حالة التفسخ فى العلاقات العربية ، خصوصاً أن نصف الجيش المصرى منشغل بعيداً فى اليمن ، وأصبحت الحرب هى الحل

الوحيد المناسب ، غير أنه كان من الضرورى أن تبحث إسرائيل عن ذريعة لها ، وأن تدخل عن طريق سوريا إلى هذه الحرب .. مع علم إسرائيل بالطبع بأن تعرض سوريا للتهديد بالعدوان سوف يدفع مصر إلى الوفاء بالتزاماتها ، واتخاذ الإجراءات لتخفيف الضغط عن سوريا والدفاع عن الحقوق العربية ، وبهذا تتاح لإسرائيل الظروف المناسبة لخلق ذريعة للحرب . وشن هجومها أساسا ضد مصر ثم ضد سوريا ثم الأردن .

وهكذا استمرت إسرائيل توالى تهديداتها واعتداءاتها على سوريا دائماً والأردن أحياناً ، وتهيىء فى نفس الوقت الرأى العام العالمى لذلك ، بعد أن تغلف ذلك فى قوالب غير حقيقية وقفاز من قطيفة ، وألفاظ خادعة ، مثل : حق الدفاع عن النفس .

ومنذ أوائل عام ١٩٦٧ بدأ التوتر فى المنطقة يتخذ أبعاداً جديدة ، فإسرائيل تهدد بغزو الأراضى السورية والاستيلاء على دمشق .

غير أن عبد الناصر فى مصر لم يجرفه هذا التيار ، ولم يغير من سياسته المعتادة تجاه اسرائيل .. وهى : التشدد الشفوى حيث لم يكن هناك مايدفعه للسعى إلى الصراع المسلح ، بل كان هنالك مايدفع عبد الناصر إلى عكس هذا ، حيث انشغل بمعالجة الأوضاع الداخلية ، ومنها هؤلاء الذين يعارضون التدخل المصرى فى اليمن .

وفى الأردن كان الملك حسين قد وكل للجيش مهمة ملاحقة واعتقال الفدائيين الفلسطينيين الذين أخذوا ينشطون داخل إسرائيل ، وقام الجيش الأردنى بمحاصرة تل الأربعين ومناطق الأغوار ، وشن الجيش الأردنى حملة تفتيش واسعة أسفرت عن اعتقال عدد من الفدائيين الفلسطينيين أودعوا فى

السجون وتعرضوا للتعذيب .

أما السعودية فقد قام الملك فيصل بإطلاق فكرة عقد مؤتمر قمة إسلامى ، وقد أيده – على الفور – الملك حسين .

وظل عبد الناصر – بالرغم من ذلك – غير متهور فى الاندفاع نحو الحرب ، وأعلن أن مسلمى العصور الوسطى انتظروا لمدة ٧٠ عاماً قبل أن يحرزوا أول انتصار هام على الصليبيين ، وإنه إن كان لا يتخلى أبداً عن المشكلة الفلسطينية فإنه لن يشن الحرب الوقائية على إسرائيل إلا إذا بدأت فى الحصول على أسلحة ذرية .

وفى سوريا جاء اليسار إلى الحكم عقب مناورات من جانب اليمين والوسط للاحتفاظ بسيطرتها ، حيث تكاثرت المخالفات فى الخفاء ، واستغل الجميع مختلف أجهزة حزب البعث ، وأخيراً دبرت مجموعة صلاح جديد يوم ٢٣ فبراير ١٩٦٦ انقلاباً عسكريًّا أطاح بالحكومة السابقة من البعث ، وتولى يوسف زعين تشكيل وزارة تضم اثنين من الشيوعيين ، وتم وضع القادة البعثيين فى السجون السورية ، ثم شددت القبضة على المعارضين الذين نددوا بنظام الحكم الملحد والمناهض للعروبة والإسلام ، وتم اكتشاف مؤامرة عسكرية ، وسمح لخالد بكداش بالعودة إلى دمشق ، فضلا عن استئناف صدور صحيفة الحزب الشيوعى علناً ، أما منظمة فتح فقد احتضنها السوريون تماماً ، وهو مااتخذته إسرائيل ذريعة للحرب ، ولجعل مدخل هذه الحرب هو سوريا .

وقد تمكن الزعماء الإسرائيليون من إيقاع الزعماء السوريين فى فخ تصريحاتهم ، ومن هذه التصريحات ما أعلنه الرئيس السورى الأتاسى فى أكتوبر ١٩٦٦ من « أننا سنحول المنطقة بأسرها إلى جحيم » واستتبع ذلك تطبيق سوريا

أساليب الضغط على إسرائيل ، ومنها إطلاق نيران مدافعها على العمال الزراعيين في الكيبوتزيم الواقعة على الحدود ، وتشجيع عمليات الفدائيين الفلسطينيين .. حيث بلغت هذه العمليات في الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٦٧ — ١١٣ عملية فدائية داخل إسرائيل ، وفي مصر كان عبد الناصر لايزال يرى أن بوسعه أن يمنح سوريا مساندة فعالة إذا ما تعرضت لضربة قوية ، وخلافاً لهذا اعتقد عبد الناصر أنه يستطيع السيطرة على المبادرات الخطرة من جانب سوريا ، بل يخفف أيضاً من حدتها .

غير أن سوريا استمرت في تسخين الأوضاع ، وخاصة على الحدود ، حيث تكررت الأعمال الفدائية ، واتخذت إسرائيل ذلك ذريعة ، واستنجدت بمجلس الأمن ، وهنا وجه يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة نداء إلى الجانبين يدعوهما إلى التعقل والاعتدال ، لكن إسرائيل قامت بهجوم جوى عنيف على سوريا في ٧ أبريل ١٩٦٧ ، وهنا صرخ السوريون « لن يعود الهدوء إلى مناطق الهدنة وأن اتفاقية الدفاع المشترك — مع مصر — لاتعني إطلاق رصاصة على جبهة غزة إذا أطلقت رصاصة على جبهة طبرية ، وأن القيادة العربية الموحدة هي « المرحومة » حيث ليس لها أى عمل إيجابي .. »

أما السوفيت فإن رد الفعل لديهم لم ينعكس إلا في إبلاغ الحكومتين السورية والمصرية ، أن الجيش الإسرائيلي سوف يهاجم سوريا في اليوم السابع عشر من مايو .. »

وهنا جاء رد فعل مصر ، فني خطاب إلى مؤتمر فلسطين في ١٣ مايو ١٩٦٧ أعلن عبد الناصر « أن الأمة العربية تخوض مرحلة حاسمة من مراحل كفاحها ، وأن واجبنا أن نستعد للمعركة الفاصلة في فلسطين وغير فلسطين » وذكر أيضاً أنه

كانت هناك خطة مبيتة من إسرائيل لغزو سوريا ، وقد تأكدت لدى عبد الناصر هذه النية من الاتحاد السوفيتى ، وهو ماذكره عبد الناصر فيا بعد حينما تحدث عن ظروف الحرب والأزمة .

وهكذا أخذت الحوادث منذ ذلك الوقت – منذ ١٣ مايو ١٩٦٧ حتى وقعت الحرب فى ٥ يونيو ، أى فى خلال ثلاثة أسابيع تقريباً – أخذت الحوادث تتوالى بسرعة ، فنى ١٥ مايو نقلت وحدات من الجيش المصرى إلى سيناء مروراً بشوارع القاهرة الرئيسية ، بعد أن وضعت مصر موضع التطبيق ، ابتداء من ذلك التاريخ ، كل الإجراءات التى تقتضيها حالة الاستعداد لتنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك بينها وبين سوريا . فماذا كان رد الفعل السوفيتى تجاه هذه الأحداث المثيرة ؟ .. كعادته دائماً فى استخدام أسلوب التسخين السياسى .. أبلغ الاتحاد السوفيتى الحكومتين السورية والمصرية بقرب موعد الهجوم الإسرائيلى .. وهو ما لعب دوراً مؤثراً فى تطور مشكلة فلسطين وأيضاً قام السوفييت بإرسال مذكرة تحوى كلمات « شديدة اللهجة » إلى حكومة إسرائيل ، وأيضاً قابل « جدعون روفائيل » الممثل الجديد لإسرائيل فى الأمم المتحدة نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتى « سيمونوف » فى موسكو ، والذى قدم هو الآخر مذكرة مماثلة ، وفى نفس الوقت حذر السفير السوفييتى فى دمشق من النتائج الخطيرة التى قد تقع على سوريا إذا ما سمح لمنظمة فتح فى الاستمرار فى هجماتها .

غير أن السوريين لم يلتفتوا إلى ذلك ، وذهبت كل التحذيرات السوفييتية – لسوريا – أدراج الرياح ، وازدادت الغارات السورية على الحدود فى النصف الأول من شهر مايو .

وهنا بعث السوفييت برسالة عاجلة إلى سوريا ومصر يحذرون فيها البلدين من

أن الإسرائيليين يقومون بحشد قوات كبيرة لتركيزها على مقربة من حدود سوريا ، وأن هناك هجوماً وشيك الوقوع ، وتشير إحدى الدراسات إلى أن السوفيت استعانوا بعبد الناصر كى يتدخل ويهدئ من روع حكومة دمشق ، لكن عبد الناصر أعلن أنه قد تولى الدفاع عن سوريا ، وهكذا خرجت هذه اللعبة الخطيرة – طبقاً لهذه الدراسات – التى أثارها السوفيت من أيديهم ، عند ما أراد عبد الناصر أن يستغلها لمصلحته هو ، وتشير دراسة أخرى إلى أن إسرائيل وقتئذ لم تكن على استعداد لمهاجمة سوريا ، وتنحى بالائمة على الاتحاد السوفيتى ، وأنه كان أولى بموظفى السفارة السوفيتية فى تل أبيب – ولديهم الفرصة بالطبع – أن يروا بأعينهم وقتئذ أنه لم تكن هناك حشود إسرائيلية على الحدود مع سوريا . وأن التقارير المفزعة التى بعث بها السوفييت كان يجدر على العرب البحث عن كنهها ، إما بين العرب أنفسهم وإما بين العرب والسوفييت وإما فى داخل سوريا نفسها .

وعموماً فإن هذه الدراسات تفسر الموقف السوفييتى كالآتى : إن ما كان يأمل فيه السوفيت هو أن يحصلوا على مكاسب سياسية من وراء هذه الحيل ، ذلك لأن مصر لن تجد مناصاً من إرسال قواتها إلى سيناء بعد التحذير السوفييتى . خاصة أن عبد الناصر كان قد تعرض لهجمات متواصلة من جانب السوريين والفلسطينيين والأردنيين الذين اتهموه بالسلبية تجاه إسرائيل ، وقد أراد عبد الناصر بالتالى أن يثبت عزمه وتصميمه على الدفاع عن سوريا ، وهكذا – طبقاً لهذه التفسيرات – أشعل الاتحاد السوفييتى الشرارة التى كان يستهدف من وراء إطلاقها الظهور بمظهر الحليف الأمين للعالم العربى ، وهكذا أشعل السوفييت النار فى الاشرق الأوسط .

ثم أخذت الحوادث تتوالى بسرعة مثيرة منذ ١٥ مايو ١٩٦٧ ، ويوافق هذا اليوم ذكرى إنشاء الدولة اليهودية ، ويعتبر يوم العيد القومى لإسرائيل ، وقد أجرت إسرائيل استعراضاً عسكريًّا فى مدينة القدس ، بالرغم من عدم اعتراف الرأى العام العالمى أبدا بالقدس عاصمة لإسرائيل أو أن تحشد فيها قواتها .

ويبقى السؤال الذى يفرض نفسه هنا .. هل كانت هناك بالفعل حشود إسرائيلية على طول الحدود مع سوريا ؟ والإجابة عن هذا السؤال تحتوى على شقين بالنسبة للسوفييت ولعبد الناصر ، فقد نشرت الصحف السوفييتية بالفعل أنباء تقول :

« .. إن حشد القوات الإسرائيلية على الحدود السورية يقطع بأن إسرائيل تشكل مصدر التوتر فى الشرق الأوسط » ومن جهة أخرى فقد أكدت إذاعة موسكو هذا النبأ ، أما عبد الناصر فقد كان متشككاً حيال هذا الموضوع ، وطلب مزيداً من الإيضاحات فجاءته تقارير سوفييتية وسورية تؤكد وجود حشود إسرائيلية بالقرب من الحدود السورية ، ويبدو أيضاً أن التقارير السوفييتية قد عملت بصفة خاصة على إقناع الزعيم المصرى بهذا الخطر ، لاسيما أنه قد تردد أيضاً أن المخابرات السوفييتية قد حصلت على خطة إسرائيلية أولية ، وأنها قدمتها لعبد الناصر على أنها تمثل خطة هجوم حقيقية وشيكة .

وعموماً يمكن القول بقدر معقول من الثقة : إن عبد الناصر قد صدق الخطر الذى يهدد سوريا ، ويبدو أن السوفيت هم الذين شجعوا عبد الناصر على الإقدام على اتخاذ خطوة ملموسة للتضامن مع سوريا ..

ومن الواضح أن عبد الناصر كان يعتقد وقتئذ نفس الشىء ، إذ إن العرب قد تغامزوا ضد عبد الناصر ، ثم هاجموه صراحة أثناء الغارات الإسرائيلية

الانتقامية على قرية السموع فى الأردن ، والغارات الإسرائيلية الجوية على دمشق ، حتى إن الملك (حسين) بعث برسالة إلى الزعيم المصرى يقول فيها طبقا لما ذكره أحد المصادر :

« برغم أنك عبد الناصر فأنت لاتقوم بشن غارات على أيدى الفدائيين من الأراضى المصرية ، وأنت تعلم أن قوات الطوارئ تفصل حدودك عن الإسرائيليين ، وبجانب ذلك فإنك ترسل إلى رجالا من منظمة فتح ليقوموا بعمليات من حدود الأردن ، ومع ذلك لاتريد أن تساعدنى ، بل لاتريد أن تغلق مضيق تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية » .

وسواء كانت هذه المصادر صحيحة أو غير صحيحة فى الحصول على مثل هذه الرسالة .. فإن السوريين والأردنيين لم يقتنعوا بالاستعراضات العسكرية المصرية فى شوارع القاهرة آنئذ ، وتكررت الاتهامات لعبد الناصر بأنه سعيد للغاية بوجود قوات الطوارئ الدولية التى تحول دون وقوع مواجهة مصرية إسرائيلية .

والنتيجة أن هذا الضغط قد ترك أثره لدى الزعيم المصرى الذى قرر أنه لايمكن أن يتراجع ، فالضغوط الداخلية والخارجية على السواء كانت شديدة عليه ، والإذاعات العربية تتهكم على خطواته التى اتخذها والتى لاتنفع ولاتضر ، والتى هى أشبه بالاستعراضات ، كما تقول إذاعة الأردن والسوريون – بدورهم – يلحون عليه والرأى العام فى مصر قد اندفع هو الآخر مؤيداً جلاء القوات الدولية .. أى قوات الطوارئ الدولية .

ومنذ ١٩ مايو أخذت مصر تسرع الخطى فى تحركات قواتها إلى سيناء ، وكان الاهتمام مركزاً وقتئذ على الوحدات المدرعة .

وأعلن الشقيرى أنه وضع قواته الفلسطينية فى غزة تحت أوامر القيادة المصرية ، وأن الملك حسين يجب أن يسقط عن العرش قبل التفكير فى حرب التحرير ضد إسرائيل .

وفى يوم ٢١ مايو حلت القوات المصرية فى شرم الشيخ محل قوات الطوارئ الدولية ، وكان على عبد الناصر أن يتخذ قراراً بشأن الملاحة الإسرائيلية ، لكنه كان لايزال متردداً فى إغلاق المضيق ، وأخبر المشير عبد الحكيم عامر بذلك ، غير أن صدى انتقادات الأردن كانت ماثلة أمام الزعيم المصرى ، حيث لزم الأردن الصمت إزاء ماحدث فى مصر بعد ١٥ مايو ١٩٦٧ مدعياً عدم وجود النية الأكيدة لدى مصر للقتال ، وأخذ راديو عمان يردد :

«إن المصريين يتكلمون أكثر مما يفعلون ، وإن السفن الإسرائيلية مازالت تمر فى مضايق تيران» .

وفى مساء ٢٢ مايو أبلغ عبد الناصر وزراءه ومستشاريه أنه عقد العزم على إعلان إغلاق مضايق تيران فى وجه السفن الإسرائيلية ، كما أوضح أن السفن غير الإسرائيلية الحاملة لمواد استراتيجية أو لبترول والمتجهة إلى إيلات ستمنع من المرور فى المضيق .

وكانت حرية الملاحة فى مضيق تيران هى الميزة الإيجابية الوحيدة التى خرجت بها إسرائيل من حملة سيناء ، واعتقد عبد الناصر أن هناك فرصاً كبيرة فى ألا تتحرك إسرائيل ، فمن ناحية كان السوفيت يحمونه .. ومن ناحية أخرى وقف الرأى العام العربى كله وراءه .

غير أن إسرائيل قد جسدت رد فعلها كمشكلة خطيرة للغاية تشكل باعثاً للحرب ، واستمرت إسرائيل فى حشد كل إمكاناتها ، وعلى الصعيد الداخلى

اضطر ليفى أشكول لإعادة تشكيل وزارته ليدخلها اثنان هما موشى ديان الذى تولى منصب وزير الدفاع ، ومناحم بيجين الذى تولى منصب وزير الدولة ، وبذلك أصبحت الوزارة تضم الأحزاب الإسرائيلية كافة وكان أهم تشجيع لإسرائيل من الولايات المتحدة ، مما طمأن إسرائيل على شن الحرب ، وبناء على ذلك عقد مجلس الوزراء الإسرائيلى الجديد اجتماعا يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ حيث أعلن المجلس القرار بشن الحرب فى صباح اليوم التالى ، ولم تكد تمضى ٢٤ ساعة حتى دخلت إسرائيل الحرب .